

## الأدب المصري في عهد الولاة العباسيين (132 - 254هـ)

كانت مصر في تلك الفترة ولاية تابعة للحكم العباسي؛ إذ كان العباسيون يولون عليها الولاة من قبلهم، حتى استقل بها أحمد بن طولون، وأسس دولته، وكان هؤلاء الولاة في تلك الفترة خاضعين لأوامر العباسيين، مدينين لهم بالطاعة، ولا تكاد تختلف هذه الفترة عما سبقها من الحكم الأموي إلا بالفوارق العامة التي كانت تفرق بين الدولتين.

وفي هذه الآونة أخذ العرب إلى الراحة، ونزلوا عن كثير من خشونتهم ونخوتهم، "وعاشروا أهل البلاد وساكنوهم" (1)، وألفوا الريف، وتزايدت أعدادهم، خاصة حينما تولى المأمون الخلافة؛ حيث عمل على إجلاء عدد كبير من العرب إلى مصر؛ لكسر شوكة الأقباط الذين كانت تزين لهم كثرتهم وقوتهم الخروج على الولاة، وتبع ذلك - بطبيعة الحال - انتشار اللغة العربية، وذيوع الإسلام على نطاق واسع.

وفي هذه الفترة كثرت الفتن والاضطرابات؛ فتن قام بها المصريون، وثورات دبرها العرب، وثورات قام بها العلويون مطالبين بالخلافة، وقد كانت هذه الحركات داعية إلى إثارة الحمية العربية والعصية القبلية، وإيقاظ روح الشعر الذي جرى على ألسن الشعراء، متحدثين عما كان بمصر من حوادث واضطرابات.

وفي هذه الفترة تطورت العلوم؛ فبعد أن كانت دينية فقط، أصبحت في هذا الدور دينية أدبية، ورحل كثير من المصريين إلى العراق والحجاز طلباً للعلم، كما وفد الكثير من العلماء والأدباء إلى مصر، مثل: الشافعي وأبي تمام وأبي نواس وربيعة الرقي، وأخذت مصر بحظ - لكنه قليل - من الثقافات الأجنبية، وبسقط عظيم من الثقافة العربية، وكل هذا كان له أثره في الشعر، فكان حظها فيه أوفر وأكثر وأرقى.

(1) الأدب العربي في مصر، ص 59.

ولعل أهم ما يميز الشعر المصري في هذه الفترة: العناية بالمعاني، والخلو من التعقيد، مع مسابرة الطبع إلى حد بعيد، ولم يفش فيه البديع الذي أثقل كاهل الأدب ببغداد، على يد مسلم بن الوليد وأبي تمام، أما الألفاظ فهي ليست شعبية، وليست جافة ضخمة، وإنما بين الضخامة واللين، وكما خلا - إلى حد بعيد - من الصنعة، فقد خلا من ذكر الدمن والأطلال التي ملئ بها الشعر العربي، ولم تكن القصيدة الواحدة مقسمة إلى غزل أو خمريات، ثم وصف الدمن فالصحراء فالإبل، ولكن من الملاحظ أن الشعراء المصريين قصدوا إلى غرضهم قصداً دون تمهيد.

ومهما يكن من أمر فإن الشعر الذي وصل إلينا من هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة في مصر؛ بل إنه كان صفحة من تطورات الأحداث والوقائع، وديواناً للتقلبات السياسية والاجتماعية والدينية، وسجلاً من سجلات التاريخ المصري، وتدلنا هذه الأحداث على أن الشعر المصري بدأ ينمو ويقوى، ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة، وألوان من الثقافات، وضروب من الحركات السياسية وغير السياسية.

### اتجاهات الشعر في هذه الفترة:

اتجه الشعر في هذه الفترة اتجاهات متعددة، يظهر أهمها فيما يلي:

#### 1- الاتجاه التاريخي:

ويقصد به الشعر الذي سجل أحداث التاريخ؛ من فتن واضطرابات سياسية وعصبية، وخلافات قبلية، وتحريض على الولاة، وثورات حربية، ويتضح هذا الاتجاه فيما يلي:

#### أ- الثورات السياسية:

وهي التي كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة؛ لجور أحكامهم، وسوء سياستهم، وفساد حكمهم، ويلاحظ على الشعر الذي عبر عن هذه الثورة السياسية أنه كان من إنتاج شعراء مقيمين بمصر، وأنه حفظ لنا من قبل المؤرخين الذين اهتموا به اهتماماً واضحاً، ويضاف إلى ذلك أنه طبع بالطابع المصري، وتأثر بالبيئة المصرية، وعبر عنها تعبيراً جيداً.

ومن هذه الثورات السياسية التي هبت في تلك الفترة، ثورة أهل الحوف والفسطاط، على موسى بن مصعب الخثعمي، الذي تولى حكم مصر سنة 167هـ، وكان ظالماً غاشماً متشدداً في جمع الخراج، وقد استطاع الثوار أن يقتلوه ويلقوا به في العراء سليماً، لا حول له ولا طول، سنة 168هـ<sup>(1)</sup>.

وهنا يقول سعيد بن عفير مترنماً بهذا الانتصار (انتصار أهل الحوف على موسى بن مصعب):

أَلَمْ تَرَهُمْ أَلَوْتُ بِمُوسَى سَيْوْفُهُمْ      وَكَانَتْ سَيْوْفًا لَا تَدِينُ لِمُتَرَفٍ  
فَمَا بَرَحْتُ بِهِ تَعَوُّدٌ وَتَبْتَدِي      إِلَى أَنْ تُرَوَّى مِنْ حِمَامٍ مُدْنَفٍ  
فَأَصْبَحَ مِنْ مِصْرَ وَمَا كَانَ قَدْ حَوَى      بِمِصْرَ مِنَ الدُّنْيَا سَلِيْبًا بِنْفَنَفٍ  
وَلَكِنَّ أَهْلَ الْحَوْفِ لِلَّهِ فِيهِمْ      دَخَائِرُ إِنْ لَا يُنْفِدِ الدَّهْرُ تُعْرَفِ<sup>(2)</sup>

فهذه الأبيات تجمع بين المدح لأهل الحوف والتأييد لهم، وبين التشفي والشهامة في هذا الوالي، الذي صار صريعاً ملقى في العراء سليماً من كل حول وطول، ولم ينفعه ما جمعه من مصر، وما حوى من أموال.

ومن هذه الثورات ثورة أبي الندى، مولى بلي، على عهد الحسين بن جميل، وقد كانت ثورة مؤيدة لثورة أهل الحوف، الذين امتنعوا من أداء الخراج، يقول أبو الندى محرّضاً رفاقه على القتال:

أَقُولُ إِذَا الرَّفَاقُ بَدَتْ لَوَجْهِي      أَلَا حُلُّوَا رِحَالِكُمْ وَطَيْرُوا  
وَإِنْ لَمْ تَتْرَكُوها فَاسْتَعِدُّوا      لِحَرْبٍ مِثْلِ حَاصِبَةٍ تَغْوُرُ

(1) انظر: هذه الثورة: النجوم الزاهرة، ج 2، ص 54، 55، يقول ابن تغري بردي: (وكان موسى هذا من شر ملوك مصر، كان ظالماً غاشماً).

وانظر: الولاة والقضاة، ص 124 وما بعدها.

(2) الولاة والقضاة، ص 127.

أَقُولُ لِصُحْبَتِي كُتُّوا عَلَيْهِمْ فَلَيْسَ يُهْرَهُمْ إِلَّا الْكُرُورُ (1)

ومن تلك الثورات أيضًا ثورة الجروي، التي بدأت سنة 199هـ تقريباً (2)، وشغلت بال الولاية والخلفاء العباسيين أنفسهم، واستمرت فترة طويلة، وقد سجل الشعر أحداث هذه الثورة، ولسعید بن عفیر أبيات في ذلك، يقول فيها:

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الْجُرُويِّ عَنِّي مَغْلَغَلَةٌ يِعَاتِبُ أَوْ يَلُومُ  
أَقَمْتَ تُنَازِلَ الْأَبْطَالِ حَتَّى تَمَيَّزَ ذُو الْحَفِيزَةِ وَالسَّوْمُ  
وَصُلَّتْ بِهِمْ فَمَا وَهَنْتُ قُورَاهُمْ وَطَيْرُ الْمَوْتِ دَائِرَةٌ تَحُومُ  
وَلَوْ هَجَمْتَ جَمُوعَكَ حِينَ حَلُّوا عَلَيْهِمْ بَادَ جَمْعُهُمُ الْمُقِيمُ  
وَكَيْفَ رَأَيْتَ دَائِرَةَ التَّوَانِي أَتَتْكَ بِصَحْوِ نَحْسٍ لَا يُقِيمُ  
أَتَتْكَ وَقَدْ أَمْنْتَ وَنَمْتَ كَيْدًا لِصِلِّ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ (3)

ومن تلك الثورات ثورة أهل الخوف أيضًا على عهد الحسين بن جميل، حين امتنعوا عن أداء الخراج، وسخطوا على صاحب الشرطة كامل الهنائي، ولسعید بن عفیر أبيات يطعن في الأمير وأعوانها يقول فيها:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ الْحَيْنَ يَجْمَعُ مَا أَمَّا الْأَمِيرُ فَحَنَاجٌ وَصَاحِبُهُ  
أَمْسَى بِمَصْرَ مِنَ الْأَنْدَالِ فِي الْإِمْرِ عَلَى الْخِرَاجِ سَوَادِيٍّ مِنَ الْأَكْرِ  
هَذَا الْهَتَائِيٍّ مِنَ الْفُسْطَاطِ يَخْلِفُهُ وَالْبَاهِلِيُّ عَلَى أَعْمَالِهِ الْأَخْرِ  
كُلُّ لَصَاحِبِهِ شِكْلٌ يَلَائِمُهُ فَهَمُّ سَوَاسِيَّةٍ فِي اللَّؤْمِ كَالْحُمْرِ

(1) الولاية والقضاة، ص 144.

(2) انتهت هذه الثورة سنة 201هـ.

(3) الولاية والقضاة، ص 165.

وَمَا هُنَاءُ إِلَّا ظَلْفُ ذِي يَمَنِ      والباهلون مأوى اللؤم من مُضِرِ  
فَمَا يَسُوغُ لَنَا عَيْشٌ فَيَنْفَعُنَا      مَعَ مَا نَرَى لَهُمْ مِنْ رِقَةِ الْخَطَرِ<sup>(1)</sup>

فهذه الأبيات تمثل شعر سعيد بن عفير، الذي كان لسان المقاومة الشعرية ورافع علمها في مصر آنذاك، ويبدو أن سعيداً هذا قد اشترك في المقاومة قولاً وعملاً، وهو هنا يهجو الأمير هجاءً مرّاً صريحاً لا مواربة فيه، كما يهجو كل من اتصل به، والحق أن من يقرأ أهاجي سعيد بن عفير، يراه معتمداً فيهما على التصريح المباشر أحياناً، وعلى التصوير الساخر أحياناً أخرى.

#### ب- العصبية العربية وفتنها:

لم تظهر العصبية العربية بين القبائل في مصر بالصورة نفسها التي كانت عليها في البلاد الإسلامية الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى أن أكثر العرب الذين استقروا بمصر كانوا من اليمينية، وفي مصر من الخيرات الكثيرة التي كانت تكفي الجميع، فلم يحتاجوا إلى التنازع من أجل الرزق، وبالإضافة إلى ذلك فالقبائل قد تفرقت ولم تتحيز في أحياز متقابلة، وإنما اختصت كل قبيلة - تقريباً - بمنطقة خاصة، عاشت فيها آمنة، ولكن هذا لم يمنع أن بعضها قد تنازع في سكنى منطقة واحدة أو مناطق متجاورة.

ومن ثم لم يصلنا شعر مصري قيل في منازعات قبلية إلا قليلاً، وذلك مثل الشعر الذي قيل في السباق بين فرسي بني يحصب ومراد (الجناح والزعفران)، وقصة هذا السباق تذكرنا بقصة داحس والغبراء في العصر الجاهلي، وقد دار حول هذا السباق شعر بين يحيى الخولاني وعبد الله التجيبي، يقول عبد الله التجيبي في ذلك:

طَلَبْتَ فَلَمْ تَأَلْ حُسْنَ الطَّلَبِ      وَرُمْتَ عَظِيماً وَلَمَّا تُصِبْ  
وَعَوَّلْتَ مَوْتاً عَلَى رَمِيهِمْ      بقوس الصَّلالِ ونيل الكذب<sup>(2)</sup>

(1) الولاة والقضاة، ص 142، 143.

(2) الولاة والقضاة، ص 403.

عليه يحيى الخولاني:

ألا أيُّها الشاعرُ المُتَّسِدُ      يُحَامِي عن العَمَرِيِّ العَطْبِ  
ورامي مُرادٍ وحوالاتها      بِنَبْلِ مِنَ الجَهْلِ غَيْرِ الصَّيْبِ (1)

ومن شعر العصبيات القبليّة ما وصل إلينا من فخر الحضارمة إذا ولي أحدهم منصباً، ومن ذلك أن لهيعة بن عيسى ولي القضاة سنة 199هـ، فقال شاعر حضرمي (لم تذكر لنا المصادر اسمه):

لَقَدْ وَلِيَ القَضَاءَ بِكُلِّ أَرْضٍ      مِنْ الغُرِّ الحَضَارِمَةِ الكِرَامِ  
رَجَالٌ لَيْسَ مِثْلَهُمْ رَجَالٌ      مِنْ الصَّيْدِ الجَحَاجِحَةِ الصَّخَامِ (2)

وقال شاعر آخر يسمى يزيد بن مقسم الصديفي:

يا حَضْرَمَوْتُ هَنِيئاً ما خِصِّصَتْ بِهِ      مِنْ الحُكُومَةِ بَيْنَ العُجْمِ والعَرَبِ  
في الجاهليّة والإسلامِ يَعْرِفُهُ      أَهْلُ الرِّوَايَةِ والتَفْتِيشِ وَالطَّلَبِ (3)

### ج- الفتن بين العرب والمصريين:

كان العرب في مصر طبقة معتزة بنفسها، فخورة بذاتها وشخصيتها؛ إذ ما زال لديهم النعرة والعنجهية العربية، وقد وصل الأمر بهذه الطبقة أنها لا تقبل أن يسمو إليها المصريون؛ ولذا كانت العلاقة بين العرب والمصريين تسوء في بعض الأحيان؛ مما جعل القبط يقومون بثورات ابتغاء طلب المساواة بالعرب، وكان العرب من جانبهم يعملون على إخماد هذه الثورات.

ولعل قضية أهل الحرس تبين إلى أي مدى كانت العلاقة بين العرب والمصريين، وتتلخص هذه القضية في أن جماعة من القبط قد أسلموا وعرفوا بأهل الحرس؛ لأنهم

(1) الولاية القضاة، ص 403.

(2)، (3) الولاية القضاة، ص 426.

كانوا حرسًا للأمراء، ولكن العرب تحرشوا بهم وأذوهم، فجمع أهل الحرس أموالاً من بينهم، دفعوها إلى القاضي العمري؛ ليثبت لهم نسباً عربياً، وأتوا بجمع من أعراب الحوف ورشوهم، فشهدوا أمام القاضي العمري بأن أهل الحرس من العرب، وأن نسبهم ينتهي إلى بني حوتكة القضاعيين، فسجل لهم القاضي نسبهم وهنا ثارت تائفة العرب، وهجا بعض الشعراء القاضي العمري وأهل الحرس، وكان على رأس هؤلاء الشعراء يحيى الخولاني الذي لم يعجبه هذا الأمر، فانطلق قائلاً:

ومن أعجب الأشياء أن عصابةً      من القبطِ فينا أضبحوا قد تعربوا  
وقالوا أبونا حوتك وأبوهم      من القبطِ علج حبله متذبذب  
وجاءوا بأجلافٍ من الحوفِ فادعوا      بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا  
ألا لعن الرحمن من كان راضياً      بهم رغماً ما دامت الشمس تغرب<sup>(1)</sup>  
وفي ذلك يقول أيضاً:

ألا أقم فاندب العرباً      وابك الديدن الحسباً  
ولا تنفك تنعى العبد      لئلا بان فاغترباً  
لقد أحدث قاضي السد      سوء في فسطاطنا عجباً<sup>(2)</sup>

وفي ذلك يقول المعلى الطائي ساخراً ومتندراً:

فاشرب على صرف الزما      ن بما ارتشيت من الحواتك  
إن كنت قد ألحقتهم      عروفا فزوجهم بناتك<sup>(3)</sup>

(1) الولاية والقضاة، ص 399.

(2) الولاية والقضاة، ص 400.

(3) الولاية والقضاة، ص 401.

## 2- الاتجاه الديني:

ونعني به الشعر الذي سجل ميولاً دينية، وتحدث عن نزعات مذهبية واتجاهات عقدية، ويتمثل ذلك في قضايا أهمها ما يلي:

## أ- قضية خلق القرآن:

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية الأخرى، وامتنح الفقهاء امتحاناً شديداً، وقد بدأت هذه المحنة أيام الخليفة المأمون، حين طلب إلى أخيه أبي إسحق المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله أمير مصر<sup>(1)</sup> أن يمتحن القضاة والفقهاء والشهود، فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق، وكان عدلاً، قبلت شهادته، وأقر بموضعه.

وفي خلافة الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن، وأمر أن يكتب على باب المساجد: "لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق"، ومن امتحن بذلك القاضي هارون بن عبد الله، وذو النون المصري، حتى إنه لم يبق أحد من فقيهه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة، فهرب كثير من الناس، وملئت السجون<sup>(2)</sup>.

وكان محمد بن أبي الليث قاضي مصر آنذاك قد أخذ الفقهاء المصريين بالامتحان في القول بخلق القرآن، واشتد عليهم إلى درجة أنه "منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، وأمرهم ألا يقربوه"<sup>(3)</sup>، واشتد عليهم، فعاداه كثير من المصريين، وهاجمه شعراؤهم، بيد أن شاعرًا يدعى الحسين بن عبد السلام هو الذي

(1) يشير ابن تغري بردي إلى أن هذه المحنة قد وقعت في مصر سنة 218هـ، وهي السنة الثانية من ولاية نصر بن عبد الله؛ إذ يقول: "وفيها كانت المحنة... أعني القول بخلق القرآن، وأجاب غالب علماء الدنيا بذلك، ما خلا جماعة يسيرة، وعظم البلاء بالعلماء، وضربوا وأهينوا، وردعوا بالسيف وغيره". النجوم، ج 2، ص 224.

(2) الولاية والقضاة، ص 450، وانظر: أيضًا، ص 193.

(3) الولاية والقضاة، ص 451.

ناصره وأيده في شدته على فقهاء مصر وعلمائها، وله قصيدة يقول فيها مخاطباً ابن أبي الليث:

وَلَيْتَ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ تَكُنْ      بِرِمِّ اللَّقَاءِ وَلَا بِقِظِ أَرْوَرِ  
وَلَقَدْ بَجَسْتَ الْعِلْمَ فِي طَلَّابِهِ      وَفَجَزْتَ مِنْهُ مَنَابِعًا لَمْ تُفَجِّرِ  
وَحَطَّمْتَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ وَصَحْبِهِ      وَمَقَالَةَ ابْنِ عَلِيَّةٍ لَمْ تُصَحِّرِ  
وَالْمَالِكِيَّةَ بَعْدَ ذِكْرِ شَائِعِ      أَخْمَلْتَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ تُذْكَرِ  
كُلُّ يَنَادِي بِالْقُرْآنِ وَخَلْقِهِ      فَشَهْرَتُهُمْ بِمَقَالَةٍ لَمْ تُشْهَرِ  
لَمَّا أَرَيْتَهُمُ الرَّدَى مُتَّصَوِّرًا      زَعَمُوا بِأَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُصَوَّرٍ (1)

والحق أن هذه المحنة قد اشتدت واستمرت فترة طويلة، إلى درجة أن البعض قد هرب من وجه ابن أبي الليث، مثل يوسف بن أبي طيبة، وأحمد بن صالح، اللذين هربا إلى اليمن، ومثل محمد بن سالم القطان وأبي يحيى الوقار (2)، ومثل ذي النون المصري الذي رأى أن يرجع، ولما رجع وقع في يدي أبي الليث، وهنا نرى الحسين بن عبد السلام يقول:

أَحْجَزْتَ يَوْسُفَ فِي خِزَانَةِ بَيْتِهِ      فَطَوْتُهُ عَنْكَ وَطَالَ مَا لَمْ يُجْجِرِ  
وَوَيَّ ابْنَ سَالِمٍ خُفِيَةً فِي بَيْتِهِ      ثُمَّ امْتَطَى عَلَسَ الظَّلَامِ الْأَسْتِرِ (3)

ومن خلال هذا الشعر الذي ناصر فيه الشاعر ابن أبي الليث ضد المصريين، يتضح لنا أن هذا الشاعر كان بعيداً عن مشاركة الجماهير ومشكلاتهم، والتعاطف معهم.

(1) الولاية والقضاة، ص 452.

(2) الولاية والقضاة، ص 453.

(3) الولاية والقضاة، ص 453، 454.

ب- الزهد والتصوف<sup>(1)</sup>؛

كان الصحابة الذين دخلوا مصر النواة الأولى لمدرسة الزهد والتصوف في مصر، ولكن التصوف الذي عرفته مصر في الفترة الأولى لم تدخله التيارات الفلسفية ولا النظريات التي نجدها عند المتأخرين من الصوفية.

وفي هذه الفترة عرفت مصر رجلين من أكابر الزهاد والمتصوفة هما الإمام الشافعي وذو النون المصري، وكان الشافعي ممثلاً لتيار الزهد الحقيقي أصدق تمثيل، وكان ذو النون المصري أول صوفي تحدث في المعرفة، ولذلك سنكتفي بهذين الرجلين نموذجين للزهد والتصوف آنذاك.

## 1- الشافعي؛

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع<sup>(2)</sup>، ولد بغزة، وانتقل إلى مكة؛ حيث حفظ القرآن الكريم؛ وأتم دراسة علوم الحديث والفقه واللغة والأدب، ثم رحل إلى المدينة؛ حيث تلقى الحديث على يد الإمام مالك، وأخذ ينتقل من المدينة إلى مكة إلى بغداد، حتى استقر به المقام بمصر، حيث دخلها سنة 199هـ، وتوفي بها سنة 204هـ وقيل سنة 205هـ.

والشافعي هو أحد الأئمة الأربعة في الفقه، وله شهرة علمية واسعة، بالإضافة إلى شهرته الأدبية، وله ديوان شعر يدل على موهبة خصبة وذوق رفيع وملكة راسخة في نظم الشعر، ويتسم شعره بالنزعة الدينية التي تغلب عليه، كما يتميز بدعوته إلى الزهد، والابتعاد عن زخرف الدنيا وبهرجها، ومفاتن الحياة ومتاعها، مع العمل للآخرة والدنيا معاً، كما تغلب عليه النزعة الوعظية، والدعوة إلى التوكل، لا التواكل، مع القناعة والسعي إلى كسب الرزق الحلال.

(1) انظر: التصوف في مصر قبل القرن السابع الهجري، د. غريب محمد علي، مجلة الأزهر، عدد فبراير ومارس، سنة 1985.

(2) وفيات الأعيان، ج 2، ص 31، إحياء التراث، بيروت، ط 1، سنة 1977م.

وإليك طائفة من شعره، تمثل شيئاً من هذه النزعة الدينية:

يقول في الصبر على الأيام:

دَعِ الْأَيَّامَ تَفَعَّلْ مَا تَشَاءُ      وَطِبُّ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ  
وَلَا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي      فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ  
دَعِ الْأَيَّامَ تَغْدِرُ كُلَّ حِينٍ      فَمَا يُغْنِي عَنِ الْمَوْتِ الدَّوَاءُ<sup>(1)</sup>

ويقول في فضل الله على الإنسان:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ      هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَّاسِ بَدِيعُ  
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ      إِنَّ الْمُحِبَّ لَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَئِدُكَ بِنِعْمَةٍ      مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ<sup>(2)</sup>

ويقول في التوكل:

تَوَكَّلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللَّهِ خَالِقِي      وَأَيْقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَكَّ رَازِقِي  
فَفِي أَى شَيْءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً      وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلَائِقِ<sup>(3)</sup>

ويقول:

شَكَّوتُ إِلَى وَكَيْعِ سُوءِ حِفْظِي      فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي  
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ      وَنُورُ اللَّهِ لَا يَهْدَى لِعَاصِي<sup>(4)</sup>

(1) ديوان الشافعي، ص 28، 29، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط الكليات الأزهرية بدون تاريخ، وانظر:

ديوانه: ص 10، تدقيق: صالح الشاعر، ط مكتبة الآداب سنة 2006.

(2) ديوان الشافعي، ص 73.

(3) ديوان الشافعي، ص 81، ص 70، ط الآداب.

(4) ديوان الشافعي، ص 70، ص 58، ط الآداب.

وإلى جانب ذلك له شعر يحمل لمحات صوفية عرفانية، وذلك مثل حديثه عن العارفين وشرابهم وأحوالهم، ومثل أمنيته في أن يمن الله عليه بشربة أنس، وجذبة قرب، لا يظماً بعدها أبداً ولا يضام، وهذا ما نراه في قوله مخاطباً رب العزة.

أَذِقْنَا شَرَابَ الْأَنْسِ يَا مَنْ إِذَا سَقَى      مُحِبًّا شَرَابًا لَا يُضَامُ وَلَا يَظْمًا<sup>(1)</sup>

## 2- ذو النون المصري؛

هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، من أعلام التصوف في مصر؛ بل وفي العالم الإسلامي، ولد سنة 155هـ، وتوفي سنة 245هـ<sup>(2)</sup>.

ويعده معظم الباحثين المؤسس الحقيقي الأول لطريق الصوفية؛ فلقد كان الناس قبله يتكلمون في الزهديات فحسب، ولكنه حينها جاء فسر الإشارات الصوفية، وتكلم في الطريق الصوفي، وكان من أوائل - إن لم يكن أول - من تحدث من الصوفية عن المعرفة وأقسامها وأنواعها ودرجاتها بكلام دقيق<sup>(3)</sup>، وأول من تكلم في "ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء"<sup>(4)</sup>. يقول ذو النون عن المعرفة (معرفة الله): "عرفت الله ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي"<sup>(5)</sup>، ويقول:

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ بَرَوْضَةٌ      سَمَاوِيَةٌ مِنْ دُونِهَا حُجُبُ الرَّبِّ<sup>(6)</sup>

(1) ديوان الشافعي، ص 96، ص 88، ط الآداب.

(2) وفيات الأعيان، ج 1، ص 163، ط دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1997؛ وانظر: الرسالة القشيرية، ص 9، ط البابي الحلبي، سنة 1959، وانظر: ذو النون المصري مؤسس التصوف الإسلامي، د. غريب محمد علي، ط جنوب الوادي بقنا 2013.

(3) انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا التفتازاني، ص 120، ط دار الثقافة، مصر، سنة 1974.

(4) في التصوف الإسلامي وتاريخه، رينولد نيكلسون، ص 7، ط لجنة التأليف والترجمة، سنة 1969م.

(5) الرسالة القشيرية، ص 156.

(6) طبقات المشايخ، لوحة 8، السلمي، مصور بجامعة القاهرة، برقم 26032.

وانظر: "الطبقات الصوفية"، السلمي، ص 13، تحقيق د. أحمد الشرباصي، ط دار الشعب، 1998م.

ويرتبط حديث ذي النون المصري عن المعرفة بحديثه عن الحب الإلهي؛ لأن هذا الحب هو الطريق الموصل إلى المعرفة الصوفية، وشعره في هذا المجال - مجال الحب الإلهي - يفيض صباغة ووجدًا وذوبًا وعشقًا، وفيه إشراق وشفافية، ويبعد عن الإغراب والإكثار من الرموز، ومن ذلك قوله:

أَمُوتُ وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي      وَلَا فُضِّيتُ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْ طَارِي  
 مُنَايَ الْمَنَى كُلَّ الْمَنَى أَنْتَ لِي مُنَى      وَأَنْتَ الْغِنَى كُلَّ الْغِنَى عِنْدَ إِقْتَارِي  
 وَأَنْتَ مَدَى سُؤْلِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي      وَمَوْضِعُ شَكْوَايَ وَمَكْنُونُ إِضْمَارِي  
 تَحْمَلُ قَلْبِي فِيكَ مَا لَا أَبْثُهُ      وَإِنْ طَالَ سُفْمِي فِيكَ أَوْ طَالَ إِضْرَارِي<sup>(1)</sup>

وعلى هذه الشاكلة تمضي أبيات ذي النون المصري في المعرفة والعشق الإلهي، متحدثه عما كان يعانيه الشاعر من عشق ووجد وخوف ورجاء ومحبة وشوق ومكابدة وصبر، ومن أجل ذلك كله يعد ذو النون المصري الصوفي الأول في مصر، كما يعد المؤسس الحقيقي للتصوف العرفاني.

### 3- اتجاهات عامة:

ونقصد بها الأغراض العامة التي يشترك فيها الشعراء؛ من مدح وهجاء وثناء وغير ذلك، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض في الشعر المصري؛ فكل الشعر العربي في جميع عصوره لم يخل منها، ويتضح ذلك على الوجه التالي:

#### أ- المدح:

وجد المدح في الشعر المصري في هذه الفترة، وكان مدحًا فيه صدق وحرارة، وكان بعيدًا عن الإسراف والمبالغة بوجه عام، وخير من يمثل ذلك الشاعر سعيد بن عفير، الذي مدح هبيرة بن هشام، وكان هبيرة هذا قد عُدِّبَ وكاد يقتل؛ لأنه أجاز إبراهيم

(1) طبقات المشايخ، لوحة 8، مصور بجامعة القاهرة رقم 26032.

الطائي الشاعر على الوالي المطلب الخزاعي، ولم يقبل هبيرة - رغم ما لاقاه من التعذيب - أن يسلم إبراهيم للوالي، وفي ذلك يقول سعيد بن عفير مادحًا هبيرة:

لِعَمْرِي لَقَدْ أَوْفَى وَفَاقَ وَفَاؤُهُ      هُبَيْرَةُ فِي الطَّائِي وَفَاءَ السَّمَوَالِ  
وَقَاهُ الْمَنَائَا إِذْ أَتَاهُ بِنَفْسِهِ      وَقَدْ بَرَقَتْ فِي عَارِضِ مُتَهَلَّلِ  
فَمَا أَنْفَكَ مَجْبُوسًا وَمُطَلَّبٌ لَهُ      عَلَيْهِ قَصِيفٌ بِالْوَعِيدِ الْمَهْوَلِ (1)

فالشاعر هنا لم يمدح بقصد الرغد والنوال، وإنما مدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أي شيء آخر، ولم يتكسب شعره، ولم يبع مالا أو عطاء.

ولكن على الجانب الآخر، وجد بين الشعراء المصريين من تكسب شعره مثل المعلی الطائي، الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم، ومثل الحسين بن عبد السلام، المشهور بالجمل الأكبر، الذي اتصل بابن المدبر والي خراج مصر ومدحه، وكان (ابن المدبر إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره، قال لغلّامه: امض به إلى المسجد الجامع فلا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة، ثم خله، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال: قد عرفت الشرط؟ قال: نعم، وأنشده:

أَرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنِ مَدِيحًا      كَمَا بِالْمَدْحِ يُتَجَعُّ الْوُلَاةُ  
فَقَلْنَا: أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا      وَمَنْ كَفَّاهُ دِجْلَةُ وَالْفِرَاتُ  
فَقَالُوا: يَقْبَلُ الْمَدْحَاتِ لَكِنْ      جَوَائِزُهُ عَلَيْهِنَّ الصَّلَاةُ  
فَقُلْتُ لَهُمْ: وَمَا تُغْنِي صَلَاتِي      عِيَالِي إِنَّهَا الشَّانُ الرَّكَاءُ  
فَأَمَّا إِذْ أَبَى إِلَّا صَلَاتِي      وَعَاقَتْنِي الْهُمُومُ الشَّاعِلَاتُ  
فِي أَمْرِي بِكَسْرِ الصَّادِ مِنْهَا      فَتُصْبِحُ لِي الصَّلَاةُ هِيَ الصَّلَاتُ

(1) الولاة والقضاة، ص 152.

فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام الطائي:  
 هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً      مِنْ حَائِئِهِنَّ فَأَيُّنَ حِمَامٍ  
 فأحسن جائزته (1).

والحق أننا لا نكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذي بقي معاني جديدة في المدح؛ بل اتخذ شعراء مصر المعاني نفسها التي اتخذها غيرهم من وصف الممدوح بالجوهر والكرم والشجاعة، وغير ذلك من الصفات المعهودة في المدح.

### ب- الهجاء:

كان الشعراء يهجون الولاة والقضاء ويحسون مساوئهم، وأكثر الشعراء هجاء في ذلك العصر هو يحيى الخولاني، الذي وقف بالمرصاد للقاضي العمري، والشاعر يحيى بن الفضيل، الذي هجا الوالي ابن إسحق الضبي ورماه بدين الخوارج؛ لأن هذا الوالي كان يؤخر صلاة الصبح إلى ما بعد شروق الشمس، وكان ينادي في شهر رمضان على الناس بالسحور، وهذان الأمران لم يعجبا الشاعر، فأرسل إلى الخليفة قصيدة على هيئة رسالة يقول فيها:

مَنْ فَتَى يُبْلِغُ الْإِمَامَ كِتَابًا      عَرَبِيًّا وَيُقْتَضِيهِ الْجَوَابَا  
 بِئْسَ وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ إِلَيْنَا      حِينَ وَلَّيْتَنَا أَمِيرًا مُصَابَا  
 خَارِجِيًّا يَدِينُ بِالسَّيْفِ فِينَا      وَيَرَى قَتْلَنَا جَمِيعًا صَوَابَا  
 مَرَّ يَمْشِي إِلَى الصَّلَاةِ تَهَارًا      وَيُنَادِي السُّحُورَ ضَلًّا وَخَابَا (2)

(1) زهر الآداب، الحصري، ج 2، ص 37، ط دار الجيل، بيروت، ط رابعة بدون تاريخ، وانظر: المغرب في حل

المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ج 1، ص 270.

(2) الولاة والقضاة، ص 201.

والملاحظ أنه لم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذي نراه بين شعراء الأمصار الأخرى. ومن الملاحظ أيضًا أن الهجاء الذي وصل إلينا يكاد يكون ذمًا للمهجو دون تعرض لأسرته؛ إذ لم يسرف الشعراء في الهجاء كما لم يسرفوا في المدح.

### ج- في الرثاء:

المعروف عن المصريين - منذ القدم - الإسراف في البكاء والنحيب؛ حزنًا لوفاة صديق أو قريب، وكان شعراء العرب يسرفون في الرثاء، ولكن الأمر هنا مختلف؛ فلقد قصر شعراء هذه الفترة في مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت، وكيف لاقى الموت بشجاعة وصبر، وتحذثوا عن صبر المتلقي؛ لأن هذا مصير كل حي.

ومن القصائد التي وصلتنا في هذا الصدد قصيدة طويلة للمعلى الطائي يرثي فيها جارية له تسمى "وصفاً"، كان يحبها لأدبها وعلمها وظرفها، وفي هذه القصيدة نرى الشاعر يناجي الموت ويناديه ويعاتبه، كأنه شخص مائل أمام عينيه ويلومه؛ لأنه اختطف منه جاريته شق نفسه وتوأم روحه، وفيها يظهر الحزن الحقيقي والألم الشديد لهذا الفراق، ولكنه لم يندب أو يتتعب، فهو يحس أنه سيلتقي بها يوم القيامة، يقول المعلى الطائي:

يَا مَوْتُ كَيْفَ سَلَبْتَنِي وَصَفَا      قَدَّمْتَهَا وَتَرَكْتَنِي خَلْفَا  
هَلَّا ذَهَبَتْ بِنَا مَعًا فَلَقَدْ      ظَفِرَتْ يَدَاكَ فَسُمِّتَنِي خَسْفَا  
وَأَخَذْتَ شِقَّ النَّفْسِ مِنْ بَدَنِي      فِقْبَرْتَهُ وَتَرَكْتَنِي النَّصْفَا  
يَا مَوْتُ مَا أَبْقَيْتَ لِي أَحَدًا      لَمَّا رَفَعْتَ إِلَيَّ الْبَلَى وَصَفَا (1)

ويستمر في قصيدته قائلاً:

يَا مَوْتُ أَنْتَ كَذَا لِكُلِّ أَحِي      إِلْفٍ يَصُونُ بِرِّهِ الْإِلْفَا

(1) العقد الفريد، ج 3، ص 233، 234، تحقيق د. عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة،

خَلَيْتَنِي فَرْدًا وَبُنْتَ بِهَا  
 فَتَرَكْتَهَا بِالرَّغْمِ فِي جَدَثٍ  
 أَسَكَّتْهَا فِي فَعْرِ مُظْلَمَةٍ  
 بَيْتًا إِذَا مَا زَارَهُ أَحَدٌ  
 لَا نَلْتَقِي أَبَدًا مُعَايِنَةً  
 يَا قَبْرُ أَبْقِ عَلَيَّ مَحَاسِنَهَا  
 مَا كُنْتُ قَبْلَكَ حَامِلًا وَكُفَا  
 لِلرِّيحِ تَنْسِفُ تُرْبَهُ نَسْفًا  
 بَيْتًا يُصَافِحُ تُرْبَهُ السَّقْفَا  
 عَصَفَتْ بِهِ أَيَدِي الْبِلَى عَصْفَا  
 حَتَّى نَقُومَ لِرَبِّنَا صَفَا  
 فَلَقَدْ حَوَيْتَ الْبِرَّ وَالظُّرْفَا (1)

\*\*\*

(1) العقد الفريد، ج 3، ص 233، 234، تحقيق د. عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة،